رأي في

التفكير المنهجي

عند

عبد القاهر الجرجاني

بقلم : د. أحمد حمدي الخولي

المسلمين من غير العرب دور بارز في اللغة العربية وآدابها. وقد وضح هذا الدور منذ أن دخلوا في دين الله أفواجًا، وأقبلوا على العربية يتعلمونها لدوافع دينية وأخرى دنيوية.

وتحت راية الإسلام ظهرت هذه الجمهرة التي أسدت خدمات جليلة للعربية لغة وأدبًا وبلاغة. ومن هؤلاء عبد القاهر الجرجاني[1] الذي ولد في أسرة فارسية بمدينة جرجان[2]. وتوفي بها عام ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ[3]، تاركًا عدة كتب بالغة القيمة منها أسرار البلاغة، دلائل الاعجاز، كتاب الجمل المعروف بـ (جورجانية) نسبة إلى مسقط رأسه، المغني في شرح إيضاح أبي علي، مختصر المغني أو المقتصد، العمدة في الصرف، شرح الجمل في توضيح كتاب الجمل السابق ذكره[4].

هذه الكتب التي تناولت علوم النحو والبلاغة والنقد تدل على أن عبد القاهر كان متكاملاً في المعرفة من ناحية وسليمًا في الذوق من ناحية أخرى.

وتكامل المعرفة وسلامة الذوق لدى عبد القاهر يعتمدان على أساس ديني بالدرجة الأولى؛ إذ أن الإسلام قد خلقه خلقًا جديدًا إلى جانب استعداد فطري طيب. ولا غرابة في الاثنتين، فالإسلام بالأصل هو دين الفطرة؛ ومن خلال فطرة عبد القاهر السليمة وإسلامه الحسن، وعقله المنظم جاء تفكير عبد القاهر في كتاباته منهجيًا وعلميًا وعقلانيًا مما أعطاه حق الريادة فيما كتب.

والعقل عند عبد القاهر أمر مهم، فهو الذي يصطنع الفكرة وينظمها وينسقها، وبعد أن تأخذ الفكرة مكانها من العقل في ترتيب وتنسيق تهبط على القلم كتابة، وعلى اللسان شعرًا وخطابة.

— ٢ —

وبالنسبة لقضية الذوق، يذهب عبد القاهر في التفرقة بين الاقناع بالنظم والاقناع بالجمال إلى القول[5]:

«وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساسًا يعرف وحي طبع الشعر، وخفي حركته التي هي كالهمس، وكمسرى النفس في النفس».

أما عن عدم هذا الذوق الموهوب فلا فائدة ترجى. يقول[6] : (... واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعًا من السامع، ولا يجد لديه قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلاً، وحتى يختلف الحال عليه، عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجبته عجب، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه).

«فأما من كانت الحالان والوجهان عنده أبدًا على سواء، وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة، وإلا إعرابًا ظاهرًا، فما أقل ما يجدي الكلام معه، فليكن منهاجه صفته بمنزلة من عدم الإحساس بوزن الشعر، والذوق الذي يقيمه به، والطبع الذي يميز صحيحه من مكسوره، ومزاحفه من سالمه، وما خرج من البحر مما لم يخرج منه، في أنك لا تتصدى له، ولا تتكلف تعريفة، لعلمك أنه قد عدم الأداة التي معها تعرف، والحاسة التي بها تجد»[7].

إذن فعبد القاهر يجعل الذوق والفطرة وسيلة إلى إدراك الجمال من جهة، وأن الذكاء اللماح يؤدي إلى تبين الفروق الدقيقة التي تمتاز بها العبارات، وتختلف من خلالها المعاني من جهة أخرى .

وهو كواضع لأسس المنهج التحليلي في دراسة البيان أو المعاني العقلية لم يتخل عنه الذوق الأدبي الذي يجعل القارئ متلمسًا لصفات الجمال في العمل الأدبي عندما لا تجدي القاعدة ولا ينفع القياس، يقول في ذلك : «انك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، ولو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة في الماضي لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبدًا، أو لا تحسن أبدًا».

— ٣ —

ومن سلامة الذوق عند عبد القادر أنه قاوم تيار اللفظية أشد مقاومة فنراه يذكر[8] (...**الألفاظ خدم للمعاني**) كما أنه يرى[9] : (... **أن في كلام المتأخرين**

كلامًا حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع، أن ينسى أنه يتكلم ليفهم. ويقول ليبيّن، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يوقع السامع من طلبه خبط عشواء. وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعني وأفسده، كمن يثقل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها».

وعند عبد القاهر أن المثل الذي يجب أن يحتذي ليس أصحاب السجع، بل أبا عمرو الجاحظ في مقدمات كتبه. وهنا يقول :[10]

«انك لا تجد تجنيسًا مقبولاً، ولا سجعًا حسنًا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغى به بديلاً ولا تجد عنه حولا، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه. أو ما هو لحسن ملاءمته — وان كان مطلوبًا — بهذه المنزلة وفي هذه الصورة».

وهنا نقول إن عبد القاهر قد وصل في العلوم اللغوية إلى مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير، وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في إدراك (دلائل الاعجاز).

فالكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيض بها الكلام غرضًا من أغراضه في الأخبار والأمر والنهي والتعجب، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة، وليس بين اللفظتين تفاضل في الدلالة، حتى تكون إحداهما ادل على معناها الذي وضعت له من الأخرى.

والألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ولكن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة كمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق بصريح اللفظ، وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر[11].

هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى : «وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء

أقلعي، وغيض الماء وقُضي الأمر، واستوت على الجودي. وقيل بُعدًا للقوم الظالمين». فتجلى لك منها الاعجاز ويبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلم بعضًا ببعض، وان لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟.

وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها؟

إذا شككت فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤديه، وهي في مكانها في الآية؟ قل **(ابلعي)** واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك؟ ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم كان النداء بـ «يا» دون «أي» نحو يأيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى المكان، دون أن يقال ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل «وغيض الماء» فجاء الفعل مبنيًا للمجهول، وتلك الصيغة تدل على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقديمه بقوله تعالى **(وقضي الأمر)** ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور؟ وهو «استوت على الجودى» ثم إضمار السفينة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابل **(قيل)** في الخاتمة: «**قيل**» في الفاتحة.

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالاعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب!

مثل هذا الأسلوب التحليلي يوصل عبد القاهر إلى ما يريد من تقرير ما أسلف من أن الشأن للنظم كاملاً، ولا شيء من الاعتبار للفظ وحده قبل أن يدخل في هذا النظم..

وهنا نقول إن عبد القاهر قد وصل في العلوم اللغوية إلى مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير، وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في ادراك (دلائل

الاعجاز).

ومذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا في أيامنا هذه هو مذهب العالم السويسري الكبير فردناندي سوسير المتوفي ١٩١٣ م. ولا يهمنا من هذا المذهب الخطير إلا طريقة استخدامه كأُسٍّ لمنهج لغوي «فيلولوجي» في نقد النصوص(١٢).

— ٤ —

لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات. **إذ يقول**: (١٣) «اعلم أن هنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيا بينها فوائد. وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدليل على ذلك أنّا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك إلى مالا يشك عاقل في استحالته، وهو أن يكون قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرفها بها، حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا فعل ويفعل لما كنا نعرف الخبر في نفسه ومن أصله، ولو لم يكونوا قد قالوا افعل لما كنا نعرف الأمر من أصله ولا نجده في نفوسنا، وحتى لو لم يكونوا قد وضعوا الحروف لكنا نجهل معانيها، فلا نعقل نفيًا ولا نهيًا ولا استفهامًا ولا استثناء. كيف والمواضعة لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم، فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم ولأن المواضعة كالإشارة، فكما أنك اذا قلت خذ ذاك لم تكن هذه الإشارة لتعرف السامع المشار إليه في نفسه، ولكن ليعلم أنه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها. كذلك حكم اللفظ مع ما وضع له، ومَن هذا الذي يشك أنّا لم نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل إلا من أساميها؟ لو كان ذلك مساغًا في العقل تكون قد شاهدته أو ذكر ذلك بصفة. واذ قد عرفت هذه الجملة فاعلم أن معاني الكلام كلها معان لا تتصور إلا فيا بين شيئين، والأصل والأول هو الخبر واذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه عرفته في الجميع. ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه. ومن ذلك امتنع أن يكون لك

قصد إلى فعل من غير أن تريد إسناده إلى شيء». وكنت إذا قلت «اضرب» لم تستطع أن تريد منه معنى في نفسك من غير أن تريد الخبر به عن شيء مظهر أو مقدر، وكان لفظك به — اذا أنت لم ترد ذلك — وصوت تصوته سواء».

هنا تستبين فلسفة عبد القاهر اللغوية العميقة. وعنها صدرت كل آرائه في نقد النصوص، فهو يرى أن الالفاظ لم توضع لتعيين الأشياء المتعينة بذواتها، وانما وضعت لتستعمل في الاخبار عن تلك الأشياء[١٤]. بصفة أو حدث أو علاقة. فنحن لا نقول زيد إلا إذا أردنا أن نخبر عنه بشي»،ومعنى ذلك أن الالفاظ ليست هي المهم في اللغة بل هي مجموعة العلاقات التي ينبغي أن تقام بين الأشياء بفضل الأدوات اللغوية وتلك العلاقات هي المعاني المتباينة التي نعبر عنها أو نشير إليها.

— ٥ —

كان مقياس النقد عند عبد القاهر هو نظم الكلام : ذلك أن النظم هو الذي يقيم العلاقات بين الأشياء. هذه العلاقات التي وضعت اللغات من أجل التعبير عنها يقول عبد القاهر في ذلك[١٥] ...

«هذا هو السبيل فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، الا وهو معنى من معاني النحو. قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له. فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه».

ومما سبق يتضح أن منهج هذا المفكر العميق الدقيق هو منهج النقد اللغوي، بل منهج النحو، على أن يكون مفهومًامن النحو أنه العلم الذي يبحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء. يقول عبد القاهر في ذلك[١٦] : إذا نظرنا في ذلك علمنا أنه لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعول، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرًا عن الآخر، أو.تتبع

الاسم اسمًا على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيدًا له أو بدلاً منه، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالاً أو تمييزًا، أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيًا أو استفهامًا أو تمنيًا، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك. أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطًا في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف وعلى هذا القياس «يكون تسلسل الكلام».

وحتى تستبين هذه الفكرة نرى عبد القاهر يدلل على أن أحداً لا يخالف في أن قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا
أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربه

وقول المتنبي :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها
من أنها عمل السيوف عوامل

الطيب أنت، اذا أصابك، طيبه
والماء أنت، إذا اغتسلت، الغاسل

وفاء كما كالربع أشجاه طاسمه
بأن تسعدا، والدمع أشفاه ساجمه

وقول أبي تمام :

يدي لمن شاء رهن لم يذق جرعا
من راحتيك درى ما الصاب والعسل

فاسد في النظم، سيئ في التأليف، وسبب ذلك أن الشاعر لم يتوخ معاني النحو فيما بين الكلم، بل قدم وأخر، وحذف أو أضمر، أو فعل ما ليس له أن يصنعه، وما لا يسوغه له قوانين هذا العلم.

وكذا ثبت أن الفساد ناشئ من عدم توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم ثبت أن المزية والفضيلة في توخي معانيه وأحكامه.

— ٦ —

كان عبد القاهر حريصًا على أن يوضح أمر المعاني وكيف تتفق وتختلف؟ ومن أين تجتمع وتفترق؟ ويفصل أجناسها وأنواعها، ويتتبع خاصها ومشاعها، وأنه يبين أحوالها في كرم منصبها من العقل، وقرب رحمها منه، أو بعدها عنه، وأن يوضح كيف أن من الكلام ما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات، وجل المعول في

شرفه على ذاته، وان كان التصوير قد يزيد في قيمته، ويرفع من قدره، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة، فلها — مادامت الصورة محفوظة، وأثر الصنعة باقيًا — قيمة تغلو، ومنزلة تعلو حتى إذا خانت الأيام أصحابها، وسلبتها جاهلا المستفاد من طريق العرض، فلم يبق إلا المادة العادية من التصوير سقطت قيمتها، وانحطت رتبتها[١٧].

وهذا من عبد القاهر هدف كبير كان ذا قدرة على تحقيقه بل حقق بالتأكيد جزءًا كبيرًا منه فيا ساقه من حديث عن الاستعارة والتشبيه والكناية والمجاز. فقد أكثر من الموازنات وبيان أصول المعاني وفروعها.

فذكر أن المعاني تنقسم أولاً إلى قسمين عقلي وتخييلي. ومن العقلي عقلي صحيح مجراه في الشعر والكتابة والخطابة مجرى الأدلة التي يستنبطها العقلاء، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعًا من أحاديث الرسول وكلام الصحابة، ومنقولاً من آثار السلف الذين شأنهم الصدق، أو ترى له أصلاً في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء.. وأما التخييلي فهو الذي لا يمكن أن يقال: إنه صدق، وأن ما أثبته ثابت وما نفاه منفي..

وهو مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريبًا، ولا يحاط به ويجيء على درجات.

وليس التخييل في واقع الأمر سوى تصوير لإحساس الأديب ومشاعره، وبه نستطيع أن نعرف وقع الشيء على نفسه، ومدى انفعال عواطفه به، والميزان الذي ينبغي أن يقاس به هو معرفة المدى الذي استطاع التخييل أن يصور عواطف الأديب ووجدانه، وإلى أي مدى كان الأديب صادق الإحساس، قوي الانفعال[١٨].



— ٧ —

إذا كان عبد القاهر قد اهتدى إلى فكرة النظم، ورأى أن البلاغة تدور عليها، فإن

هذه الفكرة لها فروع كثيرة تنطوي تحتها من مسائل التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، وغير ذلك من الطرق التي تصاغ عليها العبارة.

وعلى الرغم من أن جهود العلماء قبله كانت قد وصلت إلى مرحلة لا بأس بها فيا يتصل بأمر البلاغة، إلا أن عبد القاهر اجتهد جهدًا فائقًا في بناء صرح البلاغة العربية. وها هو ذا يصف حال البلاغة قبل عصره، وفي عصره، فيقول[١٩] :

«واعلم أنك لا ترى في الدنيا علمًا قد جرى الأمر فيه بديئًا وأخيرًا على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبيان، أما البدىء فهو أنك لا ترى نوعًا من أنواع العلوم إلا واذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس وحدة العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتصريح أغلب من التلويح، والأمر في علم الفصاحة بالضدّ من هذا، فانك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جلّه أوكله رمزًا ووحيًا وكناية وايماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدقّ النظر، ومن يرجع من طبعه إلى ألمعيته يقوى معها الغامض ويصل بها إلى الخفى، حتى كان حرامًا أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب لها. وبادية الصفحة لا حجاب دونها، وحتى كأن الإفصاح بها حرام، وذكرها إلا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ.

وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلامًا للأولين، ويتدارسوه ويكلم به بعضهم بعضًا من غير أن يعرفوا له معنى، ويقفوا منه على غرض صحيح، ويكون عندهم أن يسألوا عنه ببيان له وتفسير إلا علم الفصاحة، فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيا بينهم ألفاظًا للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، أو يستطيعوا أن يسألوا عنها وأن يذكروا لها تفسيرًا يصح».

فمن أقرب ذلك أنك تراهم يعقلون إذا هم تكلموا في مزية كلام : على كلام أن ذلك يكون بجزالة اللفظ، وإذا تكلموا في زيادة نظم على نظم : أن ذلك يكون

لوقوعه على طريقة مخصوصة، وعلى وجه دون وجه، ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء، ويقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يحلى منه السامع بطائل».

لعل عبد القاهر قد تغالى إلى حد فيا ذهب إليه، فما من شك أنه قرأ لمن سبقوه وتأثر بهم، ونقل عنهم. ولكنه في كل هذه الحالات الشخصية القوية التي تنظر وتنقد يصل إلى آراء لم يصل إليها من سبقوه، ولا يقف عند ما توقفوا عنده مما جعله عالمًا مبتكرًا[٢٠]. بل إنه نجح نجاحًا كاملاً في التوفيق بين التفكير الأدبي الذوقي، والمنهج الفلسفي العلمي[٢١]. وذلك باستثارة الذوق إلى إدراك الجمال، ثم محاولة تصنيف ما يهدي إليه الذوق، ووضعه في إطار علمي ذي قواعد وقوانين[٢٢].

شاء عبد القاهر لنفسه بهذا التفكير المنهجي المتقدم في عصره والسابق على أوانه أن يكون مجالاً خصبًا لدراسة القدامى والمتحدثين، فنهضوا يعملون النظر ويقلبونه فيا قدم هذا الرجل من نظرات عميقة.

فقد فضل الأستاذ الشيخ محمد عبده



• الدكتور طه حسين •

كتابيّ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة على ما عداهما من كتب أخرى في البلاغة لا تؤدي إلا إلى مناقشات لفظية وجدل عقيم لا طائل تحته.

ورأى الأستاذ الدكتور طه حسين أن عبد القاهر قد وفق بين البيانين العربي واليوناني، واعتبرهما بحق أنفس ما كتب في البيان العربي.

ويذهب الأستاذ أمين الخولي إلى أن عبد القاهر «متكلم فلسفي تارة»، وهو أديب

خفاجي يقول بإنكار عبد القاهر لما رآه الجاحظ من أهمية الألفاظ، ثم ثورته على مذهب العسكري الذي يرى جودة الكلام تعود إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل.

ويعد الأستاذ الدكتور بدوي طبانة عبد القاهر ناقدًا أدبيًا بل في طليعة النقاد العرب بينما يشرح الأستاذ الدكتور درويش الجندي نظرية عبد القاهر في النظم وأن لها هدفين أولهما: بيان أن جوهر الكلام هو المعنى القائم في النفس، وثانيهما: ربط البلاغة بالإعجاز.

أما الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي، فينتهي في الكتاب الذي خصصه لعبد القاهر — فأفاد به فائدة كبرى — إلى أنه الشخصية المبتكرة العميقة التفكير التي كان لجهودها أثر كبير في البلاغة العربية.

أما الأستاذ محمد خلف الله، فيرى أن عبد القاهر قد تأثر بمن سبقوه — في بعض نواحيه الفكرية في البلاغة والنقد — بالثقافة الإغريقية ولا سيما بحوث أرسطو وإن كان هذا التأثر لا ينافي الأصالة من ناحية ولا ينفي عن عبد القاهر صفة العالم المبتكر[٢٣] من ناحية أخرى.



• الشيخ محمد عبده •

صانع كلام وناقد تارة أخرى.

ويذكر الأستاذ إبراهيم مصطفى أن عبد القاهر رسم في كتابه دلائل الاعجاز طريقًا جديدًا للبحث النحوي تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبين أن للكلام (نظمًا، وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام وأنه إذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهمًا معناه، ولا دال على ما يراد منه.

وكتب الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم

هكذا اختلفت الآراء فيما يتصل بعبد القاهر ناقدًا كان أم بلاغيًا أم ناحيًا. والقول الفصل هو أن الآراء التي وصل إليها عبد القاهر ما نجمت إلا عن تفكير منهجي تمتع به الرجل. هذا التفكير المنهجي له أساسان هما التأثر والأصالة.

ففيما يتصل بالتأثر لا شك أن عبد القاهر كشخصية عاشت وماتت في جرجان لابد وأن يكون قد تأثر أولاً بخصائص جنسه الآري من حيث القدرة على طول الفكرة، واجتهاد الرأي، وطول الخلوة.[٢٤] ثم ساعدته بيئته بما لها من طبيعة جميلة ومناظر متنوعة وطقس متميز ورسوخ قدم في العلم وحسن حظ في تخريج طائفة من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدِّثين على الاستمرار في طلب العلم واكتساب المعرفة.



ولم يكتف عبد القاهر بطاقته المتأججة، فأخذ ينميها ويصقلها على يد شيوخ العلم في بلده مثل أبي الحسن محمد بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي المقيم بجرجان وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني. وقد أثر كل منهما في عبد القاهر تأثيرًا بالغًا. الأول من حيث التدريس والتوجيه، والثاني بالقدوة العلمية والأسوة الحسنة. هذا في الوقت الذي كان عبد القاهر يواصل تثقيف نفسه بنفسه فيقرأ أمهات الكتب.

وعن الأصالة : فقد سعى عبد القاهر إلى أن يكون عالمًا عقلانيًا؛ ومن ثم فإن فلسفته تكمن في بيان هذه الأبعاد الثلاثة: البعد الحسي والبعد العقلي والبعد الذوقي. ومن يطالع كتب عبد القاهر يدرك بجلاء أن ثمة خيطًا ساريًا في كل إنتاجه هو «العقل» وهذا الخيط هو الرباط الذي يربط أفكاره بعضها ببعض سواء أكانت نقدية أم بلاغية أم نحوية.

وعلى ذلك فلا ينبغي أن نقسم تقسيمًا حاسمًا شخصية الرجل أو بالأحرى فكره إلى ثلاثة أقسام نقدية وبلاغية ونحوية. إن تقسيمًا هذا شأنه لا يعبر البته عن طبيعة العلوم النظرية في زمانه. فلقد كانت دراسة العلوم في هذا الوقت تقوم على مبدأ التكامل في المعرفة. ولنا في أبي الريحان البيروني من أهل خوارزم الذي كتب في العلوم والرياضة

والتاريخ واللغة والقصص والأمثال والحكم والتراجم الدليل علي ذلك. هكذا كان رجال الفكر والثقافة في القرون الأولى من الهجرة، فلا عجب أن نجد عبد القاهر ينحو نحوهم، غلب عليه النحو فلقب بالنحوي، وعدّ من أكابر النحويين. وعلى معاني النحو أقام نظريته في البلاغة والبيان.

وفي النهاية فإن إبداع عبد القاهر الجرجاني سواء في إنتاجه أم في منهجه قد جاء في جملته نتاجًا للإسلام الحنيف. لقد حسن عمله لأن إسلامه قد حسن. ولا أدل على ذلك من أن كتابيه دلائل الاعجاز، وأسرار البلاغة قد قاما في الأصل على دراسات قرآنية.



الهوامش

(١) **هو عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني.**

(٢) **مدينة كبيرة ومشهورة تقع بين طبرستان وخراسان، وأهلها أحسن وقارًا، وأكثر مروءة ويسارًا ... يأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحمودة.**

(٣) **محمد معين** (دكتور) فرهنك معين جـ٥، ص ١٣٤٤، **زهره خانلري** (دكتور) فرهنك أدبيات فارسي دري، ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) المرجعان السابقان. نفس الصفحات.

(٥) **عبد القاهر الجرجاني** · أسرار البلاغة ص ٢٦٦، الطبعة الثالثة.

(٦) **عبد القاهر الجرجاني** دلائل الاعجاز ص ٢٢٥ وما بعدها. طبع القاهرة ١٣٣١ هـ.

(٧) **أحمد أحمد بدوي** (دكتور) · عبد القاهر الجرجاني : ص ٢٨٠ وما بعدها الطبعة الثانية.

(٨) أسرار البلاغة ص٥.

(٩) المرجع السابق ص٦

(١٠) المرجع السابق ص٧.

(١١) دلائل الاعجاز ص ٣٥، ٣٨.

(١٢) **محمد مندور** (دكتور) النقد المنهجي عند العرب ص ٣٣٥.

(١٣) دلائل الاعجاز ص ٤٩.

(١٤) المرجع السابق ص ٤٤.

(١٥) أسرار البلاغة ص١٩ وما بعدها

(١٦) المرجع السابق نفس الصفحة.

(١٧) **أحمد أحمد بدوي** (دكتور) : المرجع السابق ص٢٦٥.

(١٨) دلائل الاعجاز ص ٣٤٩ — ٣٥٠

(١٩) **محمد خلف الله** . من الوجهة النفسية، في دراسة الأدب ونقده ص١٢٥. القاهرة طبع القاهرة ١٩٤٧ م

(٢٠) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢١) **أحمد أحمد بدوي** (دكتور) : المرجع السابق، ٣٧٦.

(٢٢) المرجع السابق : ص ٣٩٠ وما بعدها.

(٢٣) المرجع السابق · نفس الصفحات.

(٢٤) **الجاحظ** البيان والتبين جزء ٣ ص ٢٨، تحقيق عبد السلام هارون.

• • •



المتوسط
جزيرة جالطة
خليج تونس
تونس
بنزرت
باجة
عنابة
سكيكدة
قسنطينة
قالمة
الكاف
زغوان
الحمامات
خليج الحمامات
سوسة
القيروان
المهدية
مكثر
سبيطلة
القصرين
تبسة
جبال تبسة
الجمهورية الجزائرية
باتنة
بسكرة
قفصة
صفاقس
جزر قرقنة
خليج قابس
قابس
جزيرة جربة
مدنين
تطاوين
شط الجريد
شط ملغيغ
توزر
نفطة
دوز
قبلي
الوادي
تقرت
الصحراء الكبرى
العرق الشرقي الكبير
ليبيا
غدامس
الذهيبات
زوارة
بانتلاريا
توزع المطر السنوي والنبات
خط طول ٨ شرقاً
٦
٨
١٠
١٢
٣٦
٣٤
٣٢
٣٠